المقدس وحدود العقل
حوار بين أرنست كاسيرر ورودولف أوتو

جفال عبد الإله

جامعة معسكر، abdelillah.djeffal@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2017/10/27؛ تاريخ القبول: 2018/06/01

Abstract: The subject of the sacred and the mind is a dialectic that proves each other's attempt to put the other within his boundaries. The Holy One possesses from the power what he can to strip the mind of its tools and methods. The mind also has the courage to sometimes tamper with or sometimes deny it. This subject is analyzed by reading in the writings of Ernst Casserer and Rudolf Otto, who are among the leading thinkers of this dialectic. Is it possible to say that the sacred is within the limits of reason, as Kant saw or is able to disable it to impose his authority?**Keywords:** sacred; religion; myth; reason; Ernst Casserer. Rudolf Otto.

الملخص: يشكل موضوع المقدس والعقل جدلية تثبت محاولة كل منهما وضع الآخر داخل حدوده، فالمقدس يمتلك من السلطة ما يمكنه من تجريد العقل من أدواته ومناهجه، كذلك العقل يمتلك من الجرأة ما مكنه من العبث بالمقدس أحيانا أو إنكاره حتى أحيانا أخرى؛ كل ذلك جعلنا نطرح هذا الموضوع للتحليل من خلال القراءة في كتابات كل من أرنست كاسيرر ورودولف أوتو، علما أنهما من رواد المفكرين في هذه الجدلية، فهل يمكن القول أن المقدس يقع في حدود العقل كما رأى كانط أم أنه يتمكن من تعطيله ليفرض عليه سلطته؟

الكلمات المفتاحية: المقدس؛ الدين؛ الأسطورة؛ العقل؛ أرنست كاسيرر؛ رودولف أوتو.

مقدمة:

إذا كان هناك شيء يحق للإنسان الحديث أن يفخر به على سائر البشر السابقين فهو إيمانه العميق بالحرية وليس ما توصل إليه من تقنية وباقي أوجه الحضارة المادية، فدون مواربة يمكننا اعتبار الحرية أثمن مكسب قدمه الإنسان لنفسه بفضل ما تم بذله على المستوى الفلسفي منذ خطوات العقل الأولى في التفكير، وحتى عندما يتعلق الأمر بالدين فإن الحرية تبقى جوهرا لا يمكننا بأي شكل من الأشكال المساس به، فلا يصح التدين إلا بتوفر الحرية كشرط رئيس يجب استيفاؤه؛ هذا ما يمكن للقارئ استخلاصه من مؤلف كانط الموسوم بعنوان "الدين في حدود العقل وحده"، فحاجة البشر للدين لا يمكن تلخيصها في العبودية بقدر ما يجب فهمها كتعبير عن الحرية التي سمحت للإنسان المتدين بتحديد مصيره عن طريق اقتراح غاية نهائية لوجودهوتاريخه، تبعا لذلك لا شيء مقدس هو أهل للعبادة إلا من حيث أن الاحترام الذي يتعلق به هو نابع من إرادة حرة (إيمانويلكانط، 2012: 12، 13)، وإذا كان هذا هو حال الإنسان الحديث مع قدسية الدين فإن الإنسان القديم كانت له نفس التجربة مع الأساطير بما تحمله من قداسة، وفي الوقت نفسه ما تتضمنه من فكر يعبر عن أشكال وعيه المختلفة، معنى ذلك أن الإنسان ومنذ القدم واجه مشكلة في تعامله مع القدسي سواء تعلق الأمر بالأسطورة أم بالدين (أنظر التعليق 1).على هذا الأساس كان لابد من إيجاد موطئ للقدم، أي مشروع فكري أو مدونات نستأنس بها لفهم الأسطورة والدين كموضوعين للفكر؛ ورغم أنهيمكنناأن نواجه المعضلة ذاتها في

دراساتعديدةكالتي قدمها فردريك هيجل وماكس فيبر ومالك بن نبي؛ إلا أننا نريد استكشاف مناطق أخرى من الفكر البشري فيما يتعلق بموضوع الأسطورة والدين، وقد اخترنا أنموذجين فكريين هما: أرنست كاسيرر (E.cassirer1874-1945)ورودولفأوتو(Rudolf. Otto1937 -1869) وللقارئ الحق في طرح سؤال لماذا ؟، أما الإجابة على هذا السؤال فستكون حتما في جزئيتين، تتعلق الأولى بأرنست كاسيرر، ومفادها أن هذا الفيلسوف هو من بين القراء المتميزين لفلسفة كانط علما أن هذا الأخير هو مؤسس فلسفة الدين باعتبار أن كل ما سبق من الدراسات لا يخرج عن اللاهوت، ضف إلى ذلك أن أرنست كاسيرر يعتبر من بين أبرز من تطرقوا للأسطورة بالدراسة النظرية من المعاصرين، وقد كان ذلك من خلال ثلاثة مؤلفات هي: (الأسطورة واللغة)، (الدولة والأسطورة)، (الرمز والأسطورة والثقافة)؛ واللافت للانتباه في هذه الأعمال كلها هو أن كاسيرر لا يقدم دراسة نظرية ترتقي بالعقل إلى عالم ينسجه مخيال الإنسان من خلال الأساطير، بل إن كاسيرريوظف الأسطورة لفهم أبرز ما أنتجه الإنسان باعتباره الكائن العاقل المتميز عن الوجود في ذاته؛ والمقصود هو: اللغة، الدولة والثقافة.

أما الثانيةفتتعلق برودولف أوتووقد اخترنا أن نطرق باب مشروعه الفكري المتعلق بالدين من خلال قراءة في مدونته الموسومة بـعنوان: "فكرة القدسي"، لأن هذا المؤلف يعتبر مرجعا ثمينا ومدخلا لابد من العبور من خلاله لفهم الموضوع الديني على المستويين اللاهوتي والفلسفي، وقد لا يتسق كل ما سبق ما لم ينتبه الباحث في موضوع

الدين والأسطورة إلى تأثرجلالباحثين في هذا المجال بكتابات هذا المفكر، فلا أحد من المفكرين المهتمين بالموضوع الديني تمكن من تقديم دراسة فينومينولوجية للدين بالجودة التي نلمسها عند رودولف أوتو الذي أثر في أفكار أبرز فلاسفة الدين اللاحقين؛ وبما أن كاسيرروأوتو عايش كل منهما الآخر سنفترض حوارا بينهما حول موضوع المقدس – الذي تتضمنه كل من الأسطورة والدين- وحدود العقل التي حاول كانط رسمها باعتباره مؤسس فلسفة الدين، هذا الحوار سيمكننا لا محالة أن نقدم حلا ولو تقريبيا لسؤال المقدس وحدود العقل والذي يمكن صياغته على النحو الآتي: هل يمكن وضع الأسطوري والديني في حدود العقل ؟ وبأسلوب آخر: هل يمكننا دائما فهم المقدس وعقلنته أم أنه يبقى مستعصيا على أدوات العقل خارجا عن حدوده؟

1- الأسطورة والدين والعقل عند أرنست كاسيرر: (العقل في حدود المقدس)

يجب أن يعلم كل من يطرق باب كاسيرر أن هذا المفكر هو فيلسوف اشتهر بقدرته على شرح النصوص الفلسفية الأكثر تعقيدا، فكيف لا وهو من بسط لنا أفكار كانط ثم وفق بينها وبين مستجدات القرن العشرين؛ على هذا الأساس فإن من يريد فهم فلسفة كاسيرر يجب عليه أن يلمبمسلمته الأم والمتمثلة في أن العقل المزود بأدوات المنطق هو من ميز الإنسان وأهله لصناعة كل النماذج الحضارية، وهو رمز الإنسان المتحضر المتميز عن الإنسان البدائي أو البدئي، علما أن المقصود هو حتما ليس المتخلف أو اللاعاقل بل السابق؛ يحاول كاسيرر دائما الربط

بين أنموذجين من الثقافة، وهما الأنموذج القديم المتمثل في المقدس (الأسطورة والدين)، والأنموذج المعاصر متمثلا في اللغة أو الدولة أو حتى الثقافة، أي أن أرنست كاسيرر يحاول في دراسته للأسطورة أن يجد لها حياة في زمن لم يترك فيه العلم والتقنية مجالا للمخيالالقدسي، وكأن كاسيرر يحاول من خلال كتاباته حول الأسطورة والدين أن يكشف عن العلاقة بين المغامرة الأولى للعقل و مغامراته الأخيرة المتميزة بالتنوع كما والتعقيد كيفا.

لا يفصل أرنست كاسيرر بين الأسطوري والديني رغم أن العناوين التي اختارها لمؤلفاته تجعل القارئ في البداية يعتقد أن هذا المفكر يهتم بالأسطورة دون الدين، لكن بمجرد ملامسة النص سيدرك القارئ أن أرنست كاسيرر يربط بين الأسطورة والدين بشكل يجعلهما متداخلان يتضمن كل منهما الآخر، أما فهمه للأسطورة فهو عبارة عن نص يعتبر الرمز كلمته المفتاحية، فالميثولوجيا حسب كاسيرر تعكس ثقل اللغة على الفكر(أرنست كاسيرر، 2009: 25)، بمعنى أن اللغة باعتبارها التجلي الواقعي للفكر تلعب دور الحلقة الوسطى بين ما هو أسطوري وما هو عقلاني، فالأسطوري كان حسب كاسيرر شاخصا في البدايات الأولى للتاريخ ولا يعني التطور أو المنطق أو حتى العلم أن الأسطوري لم يصبح له وجود، بل هو حاضر كما في زمن هوميروس لكننا فقط لا ندركه(أرنست كاسيرر، 2009: 25)؛ إن الأسطورة لا تعبر عن مرحلة من مراحل تاريخ الفكر البشري بقدر ما تعبر عن سمة متأصلة في كل الأشكال الفكرية التي أنتجها الإنسان.

بعودتنا للحديث عن الكلمة المفتاحية في أطروحة أرنست كاسيرر حول الأسطورة – أي الرمز – تجدر بنا الإشارة إلى أن اللغة كنسيج رمزي هي بوابة الإدراك بالنسبة للذين يريدون فهم الأساطير، أي أن قراءة الأساطير لا يجب أن تتلخص في متعة تجاوز الواقع المفعمة بحرية المخيال، بل يجب أن تعمل القراءة التي تنشد فهم الأساطير على فك رموز لغة النص المقدس فيها؛ وفي كل الأحوال فإن أرنست كاسيرر يوثق العلاقة بين الأسطورة والظاهرةالملازمة لكل أشكال الفكر ألا وهي اللغة، ويظهر ذلك في النص الآتي:"على الكلمة المنطوقة تعتمد الآلهة جميعا، والوحوش والناس جميعا، ففي الكلمات تعيش المخلوقات كلها... لأن الكلمة لا تفنى، وهي أول وليد للقانون الأبدي، وأم الفيدات، وسر العالم الإلهي."(أرنست كاسيرر، 2009: 93)، هنا يمكن القول أن أرنست كاسيرر يعتبر بأن الفكر الأسطوري يقوم على مسلمة مفادها أن الأسماء لا تحمل معاني فقط بل هي رموزتمتلك دلالات وفوق تلك الدلالات هي تمتلك ثقلا أي تأثيرا، فاستخدام المسيحيين لاسم "الله"بقولهم: باسم الله، سيستحوذ على الماء ويتخلله فيصبح الماء مقدسا(أرنست كاسيرر، 2009: 103)؛ كل ما سبق يؤسس لدى كاسيرر إلى فكرة مفادها أن القداسة تشكل نقطة تقاطع بين الأسطورة واللغة.

نقول ما سبق لأننا نجد في مؤلف الأسطورة واللغة باعتباره مرجعا أساسيا لفهم وجهة نظر كاسيرر للأسطورة والدين نصا بالغ الأهمية وهو الآتي:" لقد أظهرت لنا التأملات السابقة كيف يتداخل الفكر

الأسطوري والفكر اللفظي ويتضافران في جميع الطرق؛ كيف تتحد البنى الكبرى للعالمين الأسطوري واللغوي، على التوالي،..."(أرنست كاسيرر، 2009: 151)ما يمكن استنتاجه من هذا النص هو علاقة وطيدة بين الأسطورة واللغة تجعلنا ننهي أي محاولة للبحث عن تراتبية بينهما قبل أن تبدأ، بمعنى أنه لا يجوز البحث عن من كان له الفضل في ظهور الآخر الأسطورة أم اللغة؟، والدليل على ذلك قول أرنست كاسيرر التالي: " والآن إذا أراد المرء أن يسأل: أي من هذين النمطين من الاستعارة يولد الآخر؟، هل تتولد التعبيرات الاستعارية في الكلام عن وجهة النظر الأسطورية أم على العكس من ذلك، تنشأ وجهة النظر هاته وتتطور على أساس اللغة؟ فإن التأملات التالية ستبين أن هذا السؤال هو فعلا خداع ..." (أرنست كاسيرر، 2009: 158).

أ- مضمون المقدس، فوضى أم نظام فكري؟

إن الأسئلة السالفة الذكر تؤكد أن أرنست كاسيرر أدرك في مرحلة ما من مراحل نبشه في الركام المتبقي من تاريخ الفكر الأسطوري أن الأسطورة هي الخلفية التي تسمح لكل الرسومات المعبرة عن ثقافة الإنسان بالظهور، فلا يجوز إذا تركيز الملاحظة على تلك الرسومات وتجاهل الدور الذي تلعبه الخلفية كمسرح يمنح الفرصة للنص والشخصيات بالتجسد والتعبير؛ وفي هذا الشأن يشير كاسيرر إلى نقطة بالغة الأهمية، والمقصود هو الأخطاء اللغوية ودورها في توجه النص الأسطوري إلى بعض الأفكار التي نعتبرها اليوم - أي بذهنية معاصرة مزودة بكل أدوات المعرفة والمنطق- ترهات لا علاقة لها بالحقيقة التي

ينشدها الإنسان منذ الأزل؛ يقول كاسيرر: " هنا كذلك تم تفسير ظاهرة الأسطورة على أنها مرض؛ فلقد جاءت عبادة الأشياء والظواهر التي تدرك في صورة أشخاص نتيجة لبعض الأخطاء اللغوية"(أرنست كاسيرر، 1985: 41)،من خلال هذا النص ستتضح الصورة أكثر، فاللغة كانت الثوب الذي يظهر فيه الفكر الأسطوري والديني، ولا يمكن دخول هذين المجالين إلا من خلال قراءة النصوص التي تنقل الأفكار الأسطورية والدينية؛ لكن المشكلة تكمن في سوء التفسير أحيانا باعتبار أن اللغة تبقى مفتوحة على تعدد التأويلات. الأمر الذي قد يؤدي بالميثولوجي أو اللاهوتي إلى الخروج عن المعنى الحقيقي إلى معنى مجاور بحكم العديد من الاعتبارات وعلى رأسها الاعتبارات الثقافية كمعنى اللفظ الذي قد يتغير من بيئة ثقافية إلى أخرى، ضف إلى ذلك أن قواعد التأويل والفيلولوجيا أو حتى الفونولوجيا وغيرها من الأدوات التي نستعين بها اليوم للوصول إلى المعاني المختبئة في النصوص لم تكن موجودة قديما، بمعنى أن الإنسان في تعامله مع النصوص الأسطورية والدينية مارس العبث بالمعاني مدة زمنية طويلة الأمر الذي أدى في الأخير إلى ظهور تلك الأفكار التي تبدوا لنا اليوم أقرب إلى الخرافة منه إلى نص مقدس.

يمكننا الآن أن نتعامل معالأسطورة والدين ونحن نعلم أنهما يتضمنان الفوضى الفكرية إن صح القول، وقد عبر كاسيرر عن تلك الفوضى بما يلي: "تبدو الأسطورة أكثر الأشياء تميزا بالتفكك والتناقض، وإذا نظرنا إليها ظاهريا ستبدو لنا نسيجا مضطربا من الخيوط المشوشة المتباينة إلى

أبعد حد "(أرنست كاسيرر، 1985: 59)،لكن ذلك لا يمثل حكم أرنست كاسيرر النهائي على الأسطورة بل هو مقدمة أو ملاحظة تنبه من يتعامل مع الأساطير بسطحية، أو إن صح القول تحذر من الاعتماد على المنطوق والشاخص في النص الأسطوري أو الديني، فالمهمة يجب أن تتركز على البحث في تلك الفوضى عن السر أو إن صح القول الفكرة التي تجعل ما يبدو لنا فوضى ينتظم ويتسق.

يعتقد أرنست كاسيرر أن ما تقوم به الأسطورة وما يقوم به الدين على المستوى الاجتماعي بتوثيق الروابط بين أفراد الزمرة الاجتماعية الواحدة هو السر أو الفكرة التي تجعل تلك الفوضى تتحول إلى نظام دقيق في الواقع وإلى اتساق على المستوى الصوري؛ هذا الفهم الذي يقدمه أرنست كاسيرر هو عبارة عن بحث يستهدف الكشف عن الوحدة في الكثرة أو المطلق الذي يلاحق النسبي، ولا يمكن أن نجد نصا يخدم هذه الجزئية أفضل من النص الآتي: "...فنحن نصادف (وحدة وراء الكثرة) في كل الأفعال الإنسانية وفي كل صور الحضارة الإنسانية؛ فالفن يمنحنا وحدة في الحدس، ويزودنا العلم بوحدة في الفكر، ويحقق الدين، كما تحقق الأسطورة وحدة في الشعور؛ فالفن يكشف لنا عالما من (الصور)، ويطلعنا العلم على عالم من القوانين والمبادئ ويعرفنا كل من الدين والأسطورة معنى الهوية ومعنى الروابط الكلية الجامعة..." (أرنست كاسيرر، 1985: 59)، ويتجسد التلاحم الاجتماعي على المستوى السلوكي من خلال الطقوس التي تعبر عن وحدة في سلوكيات أفراد المجتمع الواحد، ولا يعتبر ذلك فهما أو تفسيرا لمعنى الطقوس على

المستوى الاجتماعي فقط بل هو غاية كان ينشدها الإنسان القديم من خلال الطقوس الأسطورية والدينية كما ينشدها اليوم الإنسان المعاصر من خلال قنوات أخرى أكثر تطورا، فما كانت تقوم به قبائل "الأورنتا" من خلال طقوس "الأنتيكيوما"هو تمثيل لحياة الأسلاف، بل هو تصور لعودتهم إلى الظهور في تلك الطقوس، الأمر الذي يجلب للأحفاد الخير، فيكون المطر والخصب والأمن وغيرها من المظاهر التي تحفظ البقاء لتلك القبائل(أرنست كاسيرر، 1985: 61)، ويعتبر ذلك أرقى وأقوى ما يمكن للمقدس أن يحققه على المستوى الاجتماعي، ففي طقوس "الأنتيكيوما" نجد نقطة تقاطع بين الماضي والحاضر والمستقبل من خلال حضور الأسلاف لاحتفالية يقوم بها الأبناء بغرض جلب الخير الذي يضمن البقاء؛ إن قراءة ما تتضمنه الأساطير والأديان يجب أن لا يبقى في حدود ضيقة يمليها النص أو اللغة خاصة إذا كانت هذه الأخيرة تسمح لنا بطرق باب اللامنطوق في تلك النصوص وجعل المدلولات لينة تقبل التشكل، فقط أن ما ننجزه عن طريق تلك القراءات يجب أن يكون منطقيا متسقا يحمل بعدا إيجابيا حتى وإن كان في حالته الخام بعيدا كل البعد عن ذلك.

إن سوء الفهم الذي قد يطال الأسطورة والدين من خلال التطرق إلى النصوص بمختلف أنواعها -باعتبار الطقوس الأسطورية والدينية شكل من أشكال هذه النصوص- لم يكن مقتصرا على الأسطورة والدين فقط بل طال كل النماذج الثقافية التي أبدعها الإنسان، كيف لا وقد واجه مكيافيلي نفس الأمرإذ نعت هذا الفيلسوف بكل النعوت التي جعلت

فكره عند العديد من القراء تجسيدا لكل أفكار الشرور على المستوى السياسي؛ قبل شرح وجهة نظر أرنست كاسيرر بالنسبة لهذا الموضوع وجب علينا الاعتراف بأننا جميعا أو في أحسن الأحوال جلنا يتهم مكيافيلي بعد قراءة كتاب الأمير بأنه ابتعد كثيرا عن كل سمات الإنسانية في أفكاره الواردة في هذا المؤلف؛ حتى أصبح مكيافيلي يقترن لدينا بالنزعة اللاأخلاقية في موضوع السياسة والمجتمع الدولي، وحتى يؤسس كاسيرر لطرح موضوعي نجده يستعين بنص لماكول مقتبس من كتابه "مقالات نقدية"، والنص هو الآتي: " إننا نشك في إمكان وجود أي اسم في تاريخ الفكر قد صادف إجماعا على مقته مثل الرجل الذي ننوي دراسة سلوكه وكتاباته، وقد تبدو الكلمات التي جرت العادة على استعمالها في وصفه وكأنها تحمل في طياتها ما يدل على أنه كان من المغررين أصحاب المبادئ الشريرة، وبأنه كان المكتشف الأصلي للطموح والانتقام، وأول من اخترع الحنث في القسم، وأنه قبل نشر كتاب الأمير السيء الطالع لم يوجد أي منافق أو طاغية أو خائن أو أية فضيلة مزورة، أو أية جريمة؛ ولقد صاغوا من كنية اسمه نعتا للخسة، وصاغوا من اسمه الأول معنى للشيطان (أرنست كاسيرر،1985: 162)، ويفسر أرنست كاسيرر ذلك بحضور مكيافيليوالميكيافلية في عديد أعمال الأدباء مثل شكسبير والمفكرين مثل سبينوزا؛ وكلهم أجمعوا على أن الرجل كان صريحا لم يتمنى ذلك بل وصف الواقع كما هو، واعتبروا ميكيافيلي أمهر من شرح فن الدبلوماسية عندما بين كيف تكتم النوايا والأحكام(أنظر التعليق رقم 2)، وبما أن ميكيافيلي كان يصف الواقع كما هو فذلك لا يعني بأن السياسة يجب أن تكون كما وردت في كتاب الأمير، بل هي في

الواقع هكذا، الأمر الذي يجعل ميكيافيلي فيلسوفا صريحا لا غير،والفهم الأيدلوجي للأطروحة التي قدمها ميكيافيلي تمت ممارسته بالطريقة نفسها قديما مع الأساطير هكذا يستدل كاسيرر.

ب- استمرارية حضور المقدس في ظل ارتقاء العقلانية

غني عن البيان أن الأسطورة بالنسبة لأرنست كاسيرر لازالت حاضرة في كل الأشكال الثقافية المعبرة عن عقلانية الإنسان كالفلسفة والفن واللغة وغيرها من الفضاءات التي سمحت للإنسان بالارتقاء فوق طابعه الهمجي السمج، إنها بمثابة الطيف الذي يمتلك وجودا غير شاخص يسمح له بالحضور دون لفت الانتباه، فالأسطورة حاضرة حسب أرنست كاسيرر في تاريخ الفكر البشري منذ خطواته الأولى إلى يومنا هذا وقد وجدنا كاسيرر مبدعا في شرحه لهذه النقطة البالغة الأهمية فأبينا إلا أن نقدم النص كما ورد وهو الآتي: "وكي نصور الصلة بين الأسطورة ومظاهر الحضارة العظمى الأخرى ربما أمكننا اللجوء إلى تشبيه مستعار من الأساطير ذاتها؛ فنحن نصادف في الأساطير البابلية خرافة تروي كيف خلق العالم، ويقال لنا إن ماردوك الإله الأسمى كان مضطرا قبل بدء عمله إلى الإقدام على حرب مريعة، فكان عليه أن يقضي على الثعبان تيامات(أنظر التعليق رقم 3) وغيره من غيلان الظلمة، لذا قام بذبح تيامات وقيد الغيلان ثم قام بصنع العالم من أطراف الثعبان تيامات وجعله على نفس صورته" (أرنست كاسيرر، 1985: 392)، يشير هذا النص إلى أسطورة الخلق البابلي التي يعتبرها كاسيرر صورة تعكس علاقة الأسطوري بكل النماذج الثقافية

والحضارية التي صنعها الإنسان، يضيف كاسيرر: "هذا ويمكن استعمال العبارات التي جاءت في هذه الخرافة البابلية في وصف عالم الحضارة الإنسانية، فلن يستطيع هذا العالم النهوض إلا إذا أمكنه سحق ظلمة الأسطورة، وأمكنه التغلب عليها، على أن الغيلان الأسطورية لم يقضى عليها قضاء مبرما، إنها قد استخدمت في خلق عالم جديد، ومازالت تحيا في هذا العالم" (أرنست كاسيرر، 1985: 392)؛ وما لا يمكن كتمانه أو إخفاؤه هو السؤال الآتي: ما موقف أرنست كاسيرر من الأسطورة؟، هل ينظر إليها نظرة إيجابية تجعل منها على الأقل جذورا لثقافة الإنسان بكل أبعادها؟ أم أنه ينظر إليها نظرة دونية كونها تعبر عن سذاجة الإنسان وظلمة العقل الذي هو في أمس الحاجة إلى التنوير منه إلى مخيال بلا منطق؟.

يرفض أرنست كاسيرر المفاضلة بين الأفكار وخاصة الأسطورية والمنطقية كما فعل جل فلاسفة المرحلة التنويرية، فهو يرى بأن الأفكار تتمايز وتختلف ولا تتفاضل؛ فالأسطورة ليست في نظره فكرا بدائيا بمعنى الفكر الذي يجسد سذاجة الإنسان، بل البدائية عند كاسيرر تعني المراحل الأولى ليس إلا؛ والدليل على ذلك هو تصنيف كاسيرر من قبل بعض الباحثين في خانة الفلاسفة البنيويين (أرنست كاسيرر، 2009: 12)، ومعنى ذلك أن الأسطورة حسب كاسيرر لا تمثل المرحلة الساذجة للتفكير البشري بقدر ما تمثل القاعدة أو الأرضية التي ستبنى عليها مختلف الأشكال والأنماط الفكرية اللاحقة، وهذا يعني بالنسبة إلينا أن وجهة نظر كاسيرر فيما يتعلق بالأسطورة لم تحمل الانتقاص من قيمة

هذا النوع من التفكير عند الإنسان القديم، فالأسطورة حسب كاسيرر لم تكن مرحلة من تاريخ الفكر البشري كما سبق وأن ذكرنا،بل هي سمة متأصلة فيه منذ بداياته الأولى حتى يومنا هذا، فإذا كانت الأساطير تعبر عن فكر متخلف أو ساذج فذلك ينطبق حتى على أنماط التفكير المتقدمة التي بلغها الإنسان في المرحلة المعاصرة.

جدير بنا الآن أن نبين الكيفية التي يستمر بها الفكر الأسطوري في أنماط تفكيرنا المعاصر، فهذه الميزة التي يقدمها أرنست كاسيرر للأسطورة تبدو بالغة الأهمية بالنسبة إلينا لذلك نحن نعتقد اعتقادا جازما بأنها تمثل لب أو جوهر الأطروحة التي يقدمها كاسيرر بشأن الأسطورة خاصة والمقدسعموما؛ نقول ذلك لأننا لا نخفي فكرة كانت لدينا بمثابة البديهية التي لا تحتاج إلى الشرح باعتبار أنها بسيطة في ذاتها، هذه الفكرة تتمثل في أن الأسطوري والديني عبارة عن نماذج فكرية تمت صياغتها في مراحل قديمة من تاريخ الإنسان، واليوم نحن نتطرق إليها بالدراسة لكشف ما تضمره من أفكار تعبر عن عبقرية الإنسان القديم، لكن أرنست كاسيرر جعل هذا التصور يتلاشى عندما اعتبر أن الأساطير لازالت موجودة وهي تلازم كل أفكارنا؛ لذلك نحاول الآن أن نبرز الكيفية التي يستمر فيها الأسطوري والديني في أفكارنا، ولم نجد نصا عند كاسيرر أفصح تعبيرا من النص الآتي: " فالوعي النظري، والوعي العملي الجمالي، وعالم اللغة والأخلاقية، والأشكال الأساسية للجماعة والدولة.. هذه كلها ترتبط في الأصل بالتصورات الأسطورية والدينية، ويكون هذا الارتباط من القوة بحيث إنه حالما يبدأ بالتلاشي يبدو العالم

العقلي بأسره مهددا بالتداعي والانهيار؛ ومن الحيوية بحيث إنها حالما تنبثق الأشكال المنفصلة من الكل الأصلي وتكشف بالتالي عن سمات خاصة على خلفيتها غير المميزة، تبدو وكأنها تجتث جذورها وتنأى بنفسها عن طبيعتها الخاصة بها، وبالتدريج فقط تكشف أن هذا الانخداع الذاتي هو جزء من تطورها الذاتي، وأن النفي ينطوي على بذرة تأكيد جديد، وأن ذلك الطلاق يصبح نقطة انطلاق لارتباط جديد، ينشأ عن مسلمات غريبة." (أرنست كاسيرر، 2009: 87، 88)، والمعنى الذي يمكن استخلاصه من هذا النص هو أن الفكرين الأسطوري والديني كانا ولازالا يمثلان الخلفية والقاعدة التي يرتكز عليها كل تفكير أنتجه الإنسان كالفن والأخلاق والسياسة، وكل الأفكار دون استثناء سواء كانت أفكارا نظرية أو عملية، وكل تطور عقلاني يمس أفكارنا بحيث تظهر لنا وكأنها تخلصت من المقدسإنماهو تطور فقط للأسطوري والديني اللذان لا يتغلب عليهما العقلاني البتة، بل إن الأسطوري والديني يمتلكان القدرة على الالتفاف حول الأفكار العقلانية ومسايرة تطورها.

قد يرى البعض أنقراءتنا لنصوص أرنست كاسيرر مجرد تحميل النص لما لا يطيق من معنى، لكن النص الآتي يثمن ما سبق ذكره ولا يترك مجالا للشك، يقول كاسيرر: " فنحن قد أصبحنا نواجه مشكلات نظرية جديدة للغاية، ويواجهنا تغيير جذري في صور الفكر السياسي، وأثيرت أسئلة جديدة وطرحت إجابات جديدة عليها، واتخذت الصدارة فجأة مشكلات لم تكن معروفة لدى المفكرين السياسيين في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر؛ ولعل أهم مظاهر هذا التغيير الذي حدث في الفكر

السياسي الحديث وأكثرها إثارة للفزع هو ظهور قوة جديدة هي قوة الفكر الأسطوري، ولقد أصبحت غلبة الفكر الأسطوري على الفكر العقلاني واضحة في بعض المذاهب السياسية الحديثة" (أرنست كاسيرر، 1985: 17)، يمثل هذا النص دليلا قاطعا على أن كاسيرر يؤكد حضور الأسطوري والديني في الفكر المعاصر، ويعتبر ذلك بالنسبة إلينا أمرا بالغ الأهمية، كيف لا وأرنست كاسيرر يقدم قراءة جديدة ومتميزة فيما يتعلق بالأسطورة والدين، لكن ورغم كل ذلك يبقى سؤال واحد يجب أن يطرح، كما يجب أن نستنطق نصوص كاسيرر للإجابة عليه، وهذا السؤال هو عبارة عن التفاف حول كل ما سبق ووضعه في الميزان وهو في الوقت ذاته تعبير عن عمق الأطروحة التي يقدمها كاسيرر في موضوع المقدس وعلاقته بأشكال الوعي البشري؛ هل يجب التعامل مع المقدس باعتباره مرحلة من مراحل الفكر البشري كما فعل أوغست كونت في قانون الأحوال الثلاث، أم يجب التعامل معه باعتباره سمة متأصلة في كل أنماط تفكيرنا بمختلف مواضيعها ومناهجها؟.

يقدملنا أرنست كاسيرر قراءة جديدة للفكر الأسطوري والديني، قراءة لا نجد لها ظلا في المدونات السابقة، وللأمانة فقط يمكن اعتبار أوغست كونت (A. compte 1798- 1857)الفيلسوف الوحيد الذي سبق أرنست كاسيرر في الحديث عن الصلة بين الأسطوري من جهة والفلسفي والعلمي من جهة أخرىمن خلال نظرية التراكم المعرفي الشهيرة التي صاغها وانتقده فيها فيما بعد غاستونباشلار صاحب القطيعة الإبستيمولوجية، لكن رغم ذلك يبقى أرنست كاسيرر مختلفا

وسباقا في الوقت نفسهعندما جعل من الأسطورة والدين ميزة الفكر عبر التاريخ من خلال اللغة ومن خلال قوة الاستعارة التي تمكن الأسطوري من النفاذ لكل تصور يقوم العقل بنحته مدعيا أنه عقلاني، في حين أن كاسيرر قد أثبت لنا بأن اللاعقلاني لازال يلاحقه ويؤثر فيه.

2- الأسطورة والدين عند رودولف أوتو: (المقدس خارج حدود العقل)

قبل التطرق للكيفية التي تعامل بها رودولف أوتومع الأسطورة والدين يتوجب علينا التذكير أولا بالسبب الذي دفعنا إلى اختيار هذا المفكر كأنموذج لدراسة موضوع الأسطورة والدين، والسبب كما سبق الذكر في توطئة هذه الدراسة هو أن رودولف أوتو كان الفيلسوف الوحيد تقريبا الذي تمكن من إخضاع الدين لدراسة ترانسندنتالية، ناهيك عن أنه كان ذا تأثير كبير في كل الكتابات المهتمة بموضوع القدسي؛ كما يتوجب علينا أيضا التعريف بهذا المفكر الذي لا يصادفه المهتمون بالشأن الفلسفي كثيرا ما لم يدخلوا البيت الفلسفي من بابه الديني؛ ولد رودولف أوتو بمدينة باين الألمانية القريبة من هانوفر سنة 1869م، وقد أتقن أوتو كل ما يتعلق بالحضارات الشرقية القديمة في الموضوع الديني، كما يعتبر أوتو مسيحيا لوثريا، درس اللاهوت بعدة جامعات ألمانية وتحديدا "غوتنغن" و "فروكلاف" إضافة إلى "ماربورغ" حتى توفي بها سنة 1937م.

الشاخص في أطروحة رودولف أوتو عن الدين خاصة هو تطبيقه المتقن للترانسندنتاليةبشهادة المتمرسين في مجال فلسفة الدين، ويعتبر

كتاب "فكرة القدسي" أشهر مؤلفاته على الإطلاق إذ يعتبر مرجعا نفيسا في هذا المجال؛ على هذا الأساس سنجعل هذه الجزئية عبارة عن قراءة في مدونة أوتو الموسومة بـعنوان: "فكرة القدسي" دون غيرها من المدونات الأخرى التي تركها لنا هذا المفكر، والحقيقة أن السبب المباشر الذي كان من وراء اختيارنا لرودولف أوتو كأرضية سنعتمد عليها لفهم الموضوع الميثولوجي والديني هو نص لفراس السواح يجعل كل من يبتغي الحقيقة المقدسة أن يتخذ من رودولف أوتو مسلكا؛ والنص هو الآتي: " وأخيرا لابد لأي حديث في تعريف الدين من أن يتوقف عند رودولف أوتو وهو لاهوتي ألماني وباحث في تاريخ وفينومينولوجيا الدين، وذلك نظرا للسلطة الكبيرة التي مارسها في كتابه "فكرة القدسي" على الدراسات الدينية منذ صدوره عام 1917..." (فراس السواح، 2002: 28)، فبعد قراءة هذا النص يكون من غير الممكن غض الطرف أو تجاهل أطروحة رودولف أوتو الذي تمكن من خلال تطوير فكرة شلرماخر أن يجدد طبيعة الدراسات التي تتخذ من الدين موضوعا لها.

نتمكن من فهم ما قدمه لنا رودولف أوتو شريطة أن ندرك فكرة بالغة الأهمية وهي أن الدراسات الدينية بدأت مع الفلسفة التنويرية، وقد كان كل من كانط وهيجل أبرز الفلاسفة الذين وضعوا أسس فلسفة الدين من خلال "الدين في حدود العقل وحده"و"فينومينولوجيا الروح"، هذا دون أن نتجاهل ما قام به ماكس فيبر وفيورباخ من خلال أعمالهما التي سبق وأن تحدثنا عنها في عمل سابق (أنظر التعليق 4)؛ أما الملاحظة التي يجب التنبيه إليها فهي أن كل عمل من هذه الأعمال وغيرها قد تمت صياغته في إطار مشروع فكري له نسق يميزه، فمثلا إيمانويل كانط عندما

يتحدث عن الدين فهو يحاول أن يجد له مكانا في جملة تتألف من العقل والأخلاق والحرية، أما هيجل فقد وضع الدين في مثلث التاريخ والجدل والمثالية، ودون إطالة بعرض ما فعله الآخرون فإن الأكيد هو تأثر الدراسة الدينية بالأنساق الفكرية وما تكونه من أحكام مسبقة، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسات حاولت قدر الإمكان أن تعقلن الدين ليساهم في بناء المشروع التنويري آنذاك المبني على العقل والحرية والأخلاق؛ وهذا هو الذي جعل الفلسفة التنويرية ترفض وبشكل قاطع الأفكار اللاهوتية التي كانت تعبر عن انغلاق المنظومة الدينية.

إن الحديث عن رودولف أوتو يجرنا لامحالة إلى الحديث عن ويليام ألستون الذي يؤكد على افتقارنا للغة التي تمكننا من وصف الظاهرة أو التجربة الدينية (يوسف سلامة، 2011: 404)، وبما أننا استبقنا المشكلة بعرض أرنست كاسيرر ووجهة نظره حول اللغة والتجربة الدينية فإننا لا نجد عائقا في تجاوز فكرة ألستون دون الخوض فيها.

لفهم أطروحة رودولف أوتو يجب أن نشير أيضا إلى أنه كان ملما بالفلسفة التنويرية التي اتخذت من الدين موضوعا للفلسفة، ولم يتوجه أوتو لدراسة الدين بالطريقة الفينومينولوجية إلا بعد قراءة عميقةلتلك الفلسفة، أي أن رودولف أوتو قد جمع بين الدارس والباحث، ففي البداية كان دارسا للموضوع الديني من خلال القراءة لعمالقة القرن الثامن عشر، ثم كان باحثا في الموضوع الديني بداية القرن العشرين، ويمكن التماس ذلك من خلال النص الآتي: " قبل المغامرة في مضمار هذا البحث، أمضيت عدة سنوات في دراسة الجانب العقلاني من ذلك

الواقع الأسمى، الذي نطلق عليه اسم الله، (رودولف أوتو،2010: 21)، وإذا كنا نؤكد نجاح رودولف أوتو في تطبيقه للترانسندنتاليةعلى الموضوع الديني فإن ذلك لا يعني بالضرورة توفر إمكانية الوصف على المستوى اللغوي دائما، بل إن رودولف أوتو قد جانب أطروحة ألستون في العديد من المرات، فهناك حالات حسبه لا يمكن فيها وصف الديني المقدس إذ يقول: " القدسية أو قل (القدسي)، هي فئة تفسير وتقييم، يختص بها ميدان الدين، إنها تطبق بالواقع عن طريق الكناية، على ميدان آخر، كميدان الأخلاق ولكنها ليست مشتقة منه؛ ورغم أنها معقدة تشتمل على عنصر أو "لحظة" خاصة جدا تفصلها عما هو عقلاني حسب المعنى الذي أغدقناه على هذه اللفظة في ما تقدم، وتبقى غير معبر عنها لا توصف، أي أنها تفلت إفلاتا تاما من الإحاطة بها بواسطة المفاهيم" (رودولف أوتو، 2010: 27).

أ- لا عقلانية المقدس

تنبلج إشكالية بالغة التعقيد مما سبق ذكره عند رودولف أوتو، وقبل التعبير عن هذه الإشكالية يجب أن نشير إلى أن تعقيدها لا يعني صعوبتها بقدر ما يعني تضمنها لمشكلات جزئية عديدة تنضوي تحتها، هذه الإشكالية يمكن التعبير عنها بسؤال مفاده: ما حقيقة التدين؟، هل هو وعي بالقدسي؟، أم حالة انفعالية تعبر عن اللاعقلاني كشرط يجب استيفاؤه كي يصح التدين؟؛ ورغم أننا ندرك بأن فهم هذه الإشكالية في حد ذاته يحتاج إلى قراءة في المشروع الفكري لرودولف أوتو فإن متنها يتعلق بجدلية بين العقلاني واللاعقلاني في كل منظومة دينية، ورغم أن

رودولف أوتو كان يقصد الدين كموضوع لأطروحته إلا أننا لا نجد مانعا في إسقاط تصوراته على الأسطورة التي لا تخلو من فكرة القدسي كما سبق الشرح.

يلامس الموضوع الديني والأسطوري عند رودولف أوتو جانبين أساسيين وهما الجانب النفسي في شقيه الذهني والانفعالي، والجانب الفلسفي من خلال الفينومينولوجيا كمنهج لا يقف عند حدود الوصف الفينومينولوجي، بل يتعداه إلى المستوى الترانسندنتالي؛ ويبدأ أوتو أطروحته حول الدين بعرض لفكرتي العقلاني واللاعقلاني، ويجزم منذ البدء على أن الاعتماد على العقلاني لفهم القدسي (الألوهة) هو السبب الرئيس الذي يؤدي إلى الخطأ في دراسة الدين (رودولف أوتو، 2010: 24)، والسبب حسب رودولف أوتو هو اللغة التي نعتقد أنها تعبر عن الفكر وهذا خطأ، كما نعتقد أنها تصف الألوهي وهذا خطأ أيضا لأنها تعجز عن الإحاطة به، والدليل على ذلك حسب أوتو ما قدمته التجربة الصوفية، فرغم تمكن المتصوفة من اللغة إلا أنهم يشتركون جميعا في استخدام عبارة "لا يمكن وصفه" (رودولف أوتو، 2010: 24)؛ لكن رودولف أوتويجزم بأن الألوهي اللاعقلاني وإن كان ينفلت من قبضتنا إن اعتمدنا على المفاهيم لوصفه فسنمسك به حتما بطريقة أم بأخرى، فكيف سيتمكن أوتو من وصف القدسي رغم ثوب اللاعقلانية المستعصي عن الوصف الذي يتميز به؟.

يتطرق رودولف أوتو بعد أشكلته لموضوع القدسي بعرض مفارقة العقلاني واللاعقلاني داخل الحيز الديني إلى أطروحة إيمانويل

كانط التي وضعت الدين في حدود العقل من جهة وألحقت القداسة بالأخلاق والواجب من جهة أخرى، وقد رأى أوتو أن ذلك خطأ باعتبار أن استخدام القداسة الأخلاقية هو مجاز ليس إلا، أو كما عبر عنه كاسيرر بالاستعارة؛ فالقدسي والقدوس والقدسية هي ألفاظ تتعلق أساسا بالألوهي، فالله هو القدوس في نظر أوتو ومعناه الصلاح المطلق وقد تم استخدامه لوصف الأخلاق باعتبارها تعبيرا عنه، لذلك يفضل أوتو استخدام لفظ "الألوهي" بدل القدسي لتجنب اللبس (رودولف أوتو، 2010: 29).

لا يمكن لمن اختار القراءة لرودولف أوتو أن يمسك بلجام النص ما لم يدرك أمرين هامين، الأول هو مسلمة مفادها أن الدين يمتلك مستويين اثنين وهما العقلاني واللاعقلاني، أما الثانية فمفادها أن العقلاني لا يعكس حقيقة الدين بدليل اعتماده على اللغة التي لا يمكن أن تحيط بفكرة القدسي، فلا يبقى إذا سوى تتبع أو تقصي العامل اللاعقلاني لفهم القدسي أو ما اصطلح عليه أوتو بـ: الألوهي الذي يتضمن سرا رهيبا؛ وفكرة السر الرهيب هي بمثابة مركز الثقل في نظرية أوتوالفينومينولوجية عن الدين، لذلك ارتأينا أن نقدم متن النص الذي خصصه أوتو للحديث عنها وهو الآتي: " لا عبارة له تناسبه غير هذه: "السر الرهيب" ويمكن الإحساس به أن يأتي في بعض الأحيان خاطفا كأنه مد لطيف يجتاح الذهن، كأنه مسحة هائئة من عبادة خاشعة، ويمكنه أن يعبر إلى النفس متخذا له فيها موقفا حازما ومستديما... في حضرة ما هو سر لا يعبر عنه، يسمو فوق الخلائق أجمعين" (رودولف أوتو،

2010: 36)؛ يبدو من متن هذا النص أن أوتو لازاليصر على عدم جدوى أي محاولة للتعبير عن القدسي أو الألوهي أو حتى السر الرهيب، لكن ما يلفت الانتباه في النص السالف الذكر هو أن السر الرهيب يجتاح الذهن ويعبر إلى النفس، ومعنى ذلك أنه في حالته الأولى يتخذ شكل العقلاني بالإدراك لكن سرعان ما يتحول إلى طبيعة انفعالية فيخرج عن حدود العقل ويتخذ شكلا لاعقلانيا.

ب- ميزات القدسي

ننتقل الآن إلى ميزات القدسي أو الألوهي أو السر الرهيب؛ ذكر رودولف أوتو ثلاث ميزات للقدسي وهي: الرهبة والعظمة والزخم؛ فالألوهي حسبه يثير فينا الرهبة التي بدورها تعبر عن عظمته، أما الزخم فهو قبول الألوهي ميزات عدة لا حصر لها ناهيك عن أنها قد تتناقض، ويشير إلى نقد الفلاسفة لفكرة الزخم باعتبارها تعبيرات بشرية صيغت بأسلوب الاستعارة، ويرى أوتو أنها تعبير عن الجانب اللاعقلاني الذي يذود عن الدين نفسه إذ ينقذه من خطأ الفهم الناتج عن محاولة الانعطاف به صوب العقلنة (رودولف أوتو، 2010: 46).

ينطلق رودولف أوتو في تحليله للسر الرهيب من مسلمة لترستيفين (أنظر التعليق4) متنها الآتي:" ليس الإله المدرك بإله" (رودولف أوتو، 2010: 49)، وهذا ما يفسر استخدام أوتو للفظ "السر" الذي ينفي وجود الإدراك، لكن لفظ "الرهيب"باعتباره صفة فهو يناقض لفظ "السر"لكن أوتو قد استخدم لفظ "الرهيب" لإثبات وجود وعي ديني

فيغلب العقل على الممارسة الدينية "التدين" ولا ينفي ذلك حسبه أن يغلب السر على الرهيب أي اللاعقلاني على العقلاني كما هو الحال عند المتصوفة(رودولف أوتو، 2010: 49، 50)؛ أما محاولة اختزال القدسي أو الألوهي أو السر الرهيب في شكله العقلاني فهو أمر تجسد في شكلين حسب رودولف أوتو لا فرق بينهما وهما الأسطورة و المذهب المدرسي الفكري، وفي كليهما يصبح الاختبار الديني هزيلا بلا معنى (رودولف أوتو، 2010: 51)،هناك لا منطوق في نص رودولف أوتو يبرز وجهة نظره للأسطورة، فهو يرى أنها المحاولة البدائية للعقل من أجل احتواء القدسي والتعبير عنه أو تصويره، ففي كل الأحوال هي محاولة لاختزال السر الرهيب في طوطم أو أنشودة أو حتى طقس من الطقوس؛ وقد تطور التعبير من أسطوري مخيالي إلى مذهبي مدرسي فكري ممنهج ومزود بأدوات المعرفة التي أنتجتها الفلسفة؛ والفصل بين القدسي من جهة والأسطورة وفلسفة الدين من جهة أخرى له دليل دامغ يبرره، فإذا كانت الميثولوجيا و فلسفة الأديان تؤكد وجود تطور في التجربة الدينية، فإن القدسي لا يتطور حسب رودولف أوتو، الأمر الذي يؤكد أن الإحساس أو الشعور بالقدسي قد امتلكه الإنسان بالفطرة فلا يجوز إذا الحديث عن الإنسان اللامتدين ولا حتى عن مراحل تجسد الروح المطلق عند هيجل، أي الفن والدين والفلسفة؛ يتجسد كل ما سبق في النص الآتي: " ولكن الأمر مع الحس الألوهي هو عينه مع حس الوازع الأخلاقي، فليس له أيضا أن يشتق من أي حس آخر، وهو في هذا المعنى لا يقبل "تطورا"..." (رودولف أوتو، 2010: 70).

أثار اهتمامنا في مدونة رودولف أوتو عنوان كاد أن يثير فينا الشك بأننا لم نحسن قراءتها، فالفصل التاسع من كتاب فكرة القدسي جاء تحت عنوان: "أساليب التعبير عن الألوهي"، نقول ذلك لأننا فهمنا سلفا من نصوص أوتو أن التعبير هو عقلنة واختزال للألوهي باعتبار أن اللغة هي محاولة للتعبير على الفكر وباعتبار أن الألوهي مطلق متميز بالزخم واللغة عاجزة عن ملاحقته، لكن سرعان ما تبدد ذلك بمجرد فهم متن هذه الجزئية، يتحدث رودولف أوتو عن تعبير مباشر باستخدام اللغة وهو تجسيد للوعي بالألوهي أما موضوعه فهو الرهيب دائما، كما يتحدث عن تعبير غير مباشر من ميزاته أنه عصي على الفهم كما المعجزة، أما موضوعه فهو السر دائما؛ ثم يتحدث أوتو عن الفن وخاصة العمارة والموسيقى كشكل من أشكال التعبير عن الألوهي الرهيب وقد يلامس حسبه السر بأسلوبين هما الظلمة والصمت، الظلمة التي تخفي الصورة فتميل إلى السر والصمت الذي يخفي الصوت فيكون سرا كذلك.

من كل ما سبق يمكننا القول أن رودولف أوتو يستحق أن يكون مرجعية فكرية لمن أراد فهم موضوع المقدس سواء تعلق بالأسطورة أم بالدين، لذلك يمكن القول أن فهم كانطوهيغل مشروط بقراءة فكرة القدسي، لأن هذا المؤلف تمكن من تجاوز التنافر الموجود بين العقلاني واللاعقلاني وجمع بينهما لفك عقدة المقدس أو إن صح القول لغز القداسة التي منحت لكل من الأسطوري والديني القيمة التي يتمتعا بها مقارنة بالأفكار الأخرى، فالإنسان حسب أوتو إنما يدرك المقدس

بالإشعاع النوراني le numineux الذي يمكن الإنسان من الاتصال مع الآخر الكامل خارج العقلي (noschis. K, 1991 : 117, 134)، المقدس أو الآخر الكامل عند أوتو سيتحول إلى قوة غير آدمية عند إلياد متجاوزة الفهم لذلك هي تستوجب المخيالl'imaginaire.

خلاصة

جزم كانط في كتابه الدين في حدود العقل أن الإنسان في حاجة ماسة لفكرة القداسة التي تمنح للعقل كمالا وللإنسان وجودا أرقى، يقول كانط: " ولكن لماذا يحتاج البشر إلى هذا النوع من الاحترام الأعظم؟ لأن كل شيء، حتى أكثر الأشياء جلالة، إنما يصغر بين أيدي بني الإنسان، متى ما أخذوا يطبقون فكرته في استعمالاتهم العادية، ينبغي إذن أن يكون ثمة شيء على الإنسان أن يقدسه" (إيمانويل كانط، 2012: 13).

من هنا يجب أن نضع نحن أيضا حدودا لموضوعنا وخلفية للصورة التي سنخلص إليها من خلال ما قدمه كل من أرنست كاسيرر ورودولف أوتو حول الموضوع الأسطوري والديني؛ هذه الحدود قد تكون عادلة بيننا كذات دارسة وبين موضوع دراستنا، لقد منحت الأسطورة والدين للإنسان فكرة القداسة التي يعتبرها كانط كما سلف الذكر سمة ميزت هذا الكائن عن غيره من الموجودات، لذلك ارتأينا في هذه الورقة البحثية التطرق لموضوع القدسي عندكل من أرنست كاسيرر ورودولف أوتو، فكان الجواب واحدا تقريبا، فالأسطورة والدين

منظومتان مختلفتان عند كاسيرر لكن امتداد الأولى مكنها من التأثير في المنظومة الثانية من خلال اللغة التي نقلت الأفكار وصنعت التصورات سواء تعلقت بالأسطوري أو بالديني، هذه التصورات وتلك الأفكار لازالت موجودة ولازال تأثيرها قويا في كل أفكارنا الأخرى حتى العلمية منها، وإن كنا نظن عكس ذلك فهذا فصل جديد من تطورها فقط ما يجعل العقل في حدود المقدس؛ أما رودولف أوتو فقد تجنب الفصل بين الأسطورة والدين مع أنه لا ينكره وركز على نقطة التقاطع بينهما ألا وهي القداسة التي يتمتعان بها، والتي حاول تأطيرها بخطاب وصفي يكشف مزاياها، فكانت فكرة القدسي مزيجا بين العقلاني واللاعقلاني بخلفية قوامها الشعور؛ الأمر الذي جعل القدسي خارج حدود العقل.

التعليقات:

التعليق الأول: كتعريف إجرائي نريد أن نجعل من المقدس أو القدسي صفة أو ميزة المتون الأسطورية والدينية على الرغم من الفرق الشاسع بينها، فالمقدس هو كل ما ورد في متن النص الأسطوري والديني على حد السواء.

التعليقالثاني: ورد هذا الوصف لميكيافلي في كتابات تاليران الذي يوظف المثل التالي لوصف فكره: " la parole a été donnée a l'homme pour déguisé sa pensée"

التعليقالثالث: تعني تيامات إلهة الظلمة أو الشر.

التعليقالرابع: المقصود هو مؤلف المسألة الدينية في الفكر العربي المعاصر – دراسة تحليلية نقدية لفكر فراس السواح – والذي تجد فيه مبحثا عن أطروحات كانطوهيغل فيبر وغيرهم عن المسألة الدينية.

التعليقالخامس: غيرهارد ترستيفن لاهوتي ألماني ولد بمدينة مورس سنة 1697م وتوفي بموهايم سنة 1769م، اعتزل الحياة ولزم العمل الديني، وقد ترك مؤلفات وأناشيد وابتهالات للمتصوفة.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

المصادر:

-1

أرنستكاسيرر،الدولةوالأسطورة،تر:أحمدحمديمحمود،مطابعالهيئةالمصريةالعامةللكتاب،ا لقاهرة،دونط، 1985.

2-أرنست كاسيرر، اللغة والأسطورة، تر: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2009.

3- رودولف أوتو، فكرة القدسي، تر: جورج خوامالبولسي، دار المعارف الحكمية، بيروت، ط1، 2010.

المراجع :

1- إيمانويل كانط، الدين في حدود مجرد العقل، تر: فتحي المسكيني، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2012.

2- فراس السواح، دين الإنسان-بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني-، دار علاء الدين، ط4، دمشق، 2002.

3- يوسف سلامة، فينومينولوجيا التجربة الدينية، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، العدد الثالث والرابع، 2011.

باللغة الأجنبية:

1- Noschis. K, Le sacréaujourd'hui, lavouivre, cahier romands de psychologieanalytique, deuxième Edition, 1991.